موضوع : بين الرجاء واليأس

- للأحبين كثيرة ...

"أين بنتي ..... ؟ ماذا أصابها ؟ أين كبدي .... ؟ يا الله !!"

يرفع أصوات سالم خلال الجدار الأربع في معسكر الأمن. حينما يبكي ويقول هكذا هو سيحصل الجواب بغتة :-

" لا تخف يا صديقي ... يحاول عمال الإنقاذ أن يسلم جميع الناس من الخطرة الخطيرة الفيضان " .. وتحمل سنلا إليك حتى ... وأكل شيء من الطعام ... هل أنت جوعان ؟"

ولكن صار سالم قلقا.

كان سالم رجلا غنيا عمره ثامن وعشرين سنة إحدى الأغنياء في مقاطعته وقد تذوق حياة فاخرة بالبيوت فاخرة وملابس جذابة والسيارات مصنعة والأطعمة متنوعة!

وَهُوَ يُضَحِّي حَيَاتَهُ وَكُلَّ جُهُودَهُ لِلْعَائِلَةِ -
زَوْجَتِهِ وَ بِنْتِهِ الْمَحْبُوبَةِ، ابْنَتُهَا فَاطِمَةَ

لَكِنْ تَتَعَسُ قَلْبِهِ بِالنَّظْرَةِ زَوْجَتِهِ مَيِّتًا
يَجْرِي تَحْتَ بِشِدَّةِ الْمِيَاهِ ! وَالْآنَ لَهُ رَجَاءٌ وَاحِدٌ -
بِنْتِهِ الْمَحْبُوبَةِ، فَاطِمَةَ !

جَاءَ الرِّيحُ مَعَ الْغُبَارِ وَمَنَعَ جَنْبِهِ وَهُوَ
بَدَأَ أَنْ يُفَكِّرَ عَنْ ابْنَتِهِ . . .

" نَعَمْ . . . كَانَتْ بِنْتِي تَبْسُطُهُ وَلَهَا وِقَايَاتٌ
كَثِيرَةٌ . . . وَهِيَ بَشَاشِي . . . وَعُمْرُهَا
سِتُّ فَقَطْ ! يَا اللهُ ، هَلْ أَهَابَ لَهَا خَطِيرَةٌ كَالزَّوْبَعِ
بِهَذَا الطُّوفَانِ ؟ لَا . . . ثُمَّ كَيْفَ أَعِيشُ وَحِيدًا ؟
ضَاعَتْ عَائِشَتِي . . . وَبِنْتِي . . . وَاكْتِسَابِي
. . . وَأَمْوَالِي . . . وَكَيْفَ أَقْدِرُ أَنْ أُمْنَعَ بِنْتِي
الْمَحْبُوبَةَ ؟ وَالْبَاقِي - رَجَاءٌ ~~تَبْسُطُهُ~~ بَسْطَهُ
لِلِّقَاءِ كَبْدِي - فَاطِمَةَ . . . نَعَمْ ، هِيَ حَيَّةٌ . . .
هِيَ حَيَّةٌ . . . "

وهو قطع أفكاره بالخوف. وبدأ أن يلاحظ الإنسان في معسكر الأمن وهو سمع أصوات مشوهة ورأى بعض الناس صاحوا بكل قوتهم والبعض يبكي بلا صوت. والبعض تشكوا كأنهم صاغوا كل من الخيباتهم وآمالهم والبعض يدعوا من إله العالم لأن يسلم هذه الولاية الخضرة من قبضة القطرات الماء التي يتلفها! ولكن أصابه قلقا عميقا لما سمع كل هذا الأصوات الشكاية والبكاء جميعا كأنه تسطر بداء سيء مع الرجاء!

وبعد لحظة. هو رأى منظرا نزوة أمام غرفته ...!

تجلس صديقه بابوا على السرير أمام غرفته وهو أبهتا غبيا كالسالم بل يجلس كالمتابع! وهو رأى مرآة ~~شخصيته~~ شخصيته أمامه!

صفق الأوقات كما تسقط أوراق مثمره من الأشجار.

بَدَأَ سَالِمٌ أَنْ يَمْشِيَ هُنَا وَهُنَاكَ مِنْ غُرْفَةٍ إِلَى أُخْرَى . وَهُوَ رَأَى يَتْبَعُ مَرَكَبًا كَبِيرَهُ مَلِيئَةً بِاللَّوَازِمِ مِثْلَ الطَّعَامِ وَالمَلَابِسِ وَحَتَّى المَاءِ الشُّرْبِ ! وَهُوَ أَيْضًا أَنَّ الهِيمِرَ بَاقِيَةٌ بَيْنَ بَعْضِ النَّابِ .

وَتَضْطَادُهُ أَفْكَارٌ بِنِيهِ وَفَاضَ الدُّمُوعُ مِنْ عَيْنَاهُ كَالفَيَضَانَا أُخْرَى !

وَبَعْدَ وَقْتٍ قَلِيلَةٍ ، هُوَ رَأَى مَنْظَرًا الَّتِي ~~صوى~~ قَرَّتْ ~~قلوب~~ قَلْبِهِ وَهُوَ سَمِعَ يَقُولُ مُبَادًا : هَذِهِ بِنْتًا حَيَّةٌ --- لَكِنْ لِي ~~شكلة~~ ، أَنَّهَا تَعِبَتْ كَثِيرَةً بِالنُّوعِ وَهُوَ رَأَى رِجْلَاهُ ~~طه~~ يَتَرَجَّحُ مِنْ أَيْدِي الصَّيَّادِ وَهُوَ سَرِعَ إِلَيْهِ وَصَاحَ : يَا بِنْتِي --- ! فَاطِمَةُ ! وَلَكِنْ صَارَ وَجْهَهُ كَالرَّهْرَةِ ذَابِلَةٍ لِأَنَّهَا بِنْتًا أُخْرَى أَصَابَهُ أَلَمٌ وَاللَّزْنَةُ وَهُوَ سَقَطَ عَلَى صَعِيدٍ وَبَدَأَ أَنْ يَبْكِي مَعَ الأَنِينِ وَحُسْرَةِ رَجَائِهِ لِلِقَاءِ بِنِيهِ المُتَوَاضِعَةِ !

فَهُوَ سَمِعَ صَوْتًا صَغِيرًا يَقُولُ لَهُ : "يَا صَدِيقِي ... هَلْ لَا تَأْكُلُ الطَّعَامَ ؛ قَطَرَاتُ دُمُوعِكَ لَمْ يَكُونُ شَبِيهًا أَمَامَ قطر قُدْرَةِ اللهِ بِالقَطَرَاتِ المِيَاهِ !"

وَمَشَى سَالِم رُوَيْدًا رُوَيْدًا إِلَى غُرْفَةِ الطَّعَام. وَهُوَ سَمِعَ ~~صَوْتًا~~ صَوْتُ طَبَقَهُ تَسْقُط عَلَى الأَرْض وَلَكِن كَان قَلْبِهِ مَلِيئَة بِالسَّمْعِ بِيهِ. وَبَعْدَ خُطُوَه الثَّانِي هُوَ سَمِعَ صَوْتًا قَدِيمَه وَمَعْرُوف:-

"يَا ابْنِي - - - - !"

صَارَ سَالِم عَاجِبًا لَمَّا رَأَى وَجْهُ امْرَأَةً ~~عَ~~ عَجوز ! كَانت وَجْهُهَا يُخَيِّل بِالدُّمُوع وَتَعَلَّمَ خَدَّيْهَا وَيَشْعُرُهَا مَشَايِب وَهِي نَحِيلَة كَالْعَمَى!

تَعَمَّدَتِ الكَلِمَات مِن لِسَانِهِ ... وَظَهَرَ فِي وَجْهِهِ آثَارُ الكَآبَة وَالْحُزْن. وَكَان الدُّمُوع يَسِيل خَدَّيْهِ

"يَا أُمِّي ..."

يَتَصَدَّى نِدَاءُهُ فِي أُفُقِ السَّمَاء وَيَدَأَبِ الأُمّ أَن تَقُولَ: "يَا ابْنِي ... هَلْ أَنتَ بِخَير؟ لَمْ ذَهَبتُ إِلَى أَيِّ مَكَان مِن تِلْكَ الطِّينَى الَّذِي فِيهَا تَرَكْتَنِي ... وَلَكِن ذَكَرْتُ وَجْهَكَ الطَّلِيف كُلَّ يَوْم ... وَلَكِن لِمَ تَرَكْتَنِي يَا كَبِدِي؟ ... إِلَى تِلْكَ العُرْفَه مَلِيئَه بِالظَّلَام؟ خَلِّ وَلِّ ... وَهَل ذَكَرْتَ عَنِّي؟ قُلْ يَا بُنَيَّ؟ ..."

حاول سالم أن يتكلم - ولكن أصابه
لزنة كأن الألفاظ مفقودة من لسانه. وهو بدا
أن يتكلم بعد لحظة:

"يا أمي أخطأت ... تركت أمي إلى دار الأيتام
ولم دكرت عني! الآن أصابني أحة من الأجنبيين
ولكن جعلت أمي لاجئة قبل سنوات! استغفر الله
صارت تلك الغرفة صامتا في ذلك الوقت ...
عرق عيون جميع الناس إلى ذلك المنظر وهم بدا
أن يتذوق حلاوة الألم!

... نعم كان لسالم رجاء للرجوع إلى الوحيدة
إليه ... ولكن، الآن له يأسا عميقا بالغربة
المحنة والمودة من أمه طوال سنوات!
... وهو رأى جميع العيث أيضا وكة من السماء.
بل من العيون الأجنبية في معسكر الأمن!
فيتصدى كلام الله عز وجل في أدنيه:
"ولا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا
كريما."

وَهُوَ قَالَ لِنَفْسِهِ: "لِي رَجَاءٌ سَيَعُودُ بِنِي إِلَيَّ ،
لِي يَأْسٌ كَأَنَّنِي طَائِشًا إِلَى أُمِّ المَجْنُونَة

وَهُوَ مَثَلٌ مِثَالٌ كَائِنًا يَعِيشُ بَيْنَ الرَّجَاءِ وَاليَأْس !!!

- فَكِّرْ ، أَنَّ الغُدُورَ الحَيَاةَ قَدْ يُضِيعُ ، وَلَا بِالفَيْضَانِ
أَوِ الجَفَافِ وَلَكِنْ بِتِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتِي صَوَّرَتْ
وَالِدَيْ اللَّاجِئَيْنِ وَالأَيْتَام !